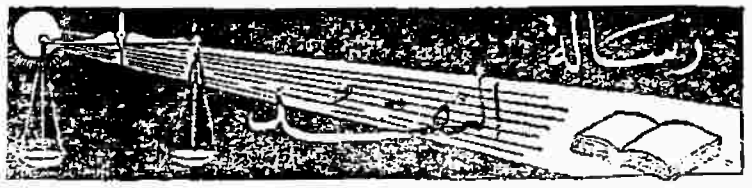

فى ليالى الملاح التائه

للشاعرة الفلسطينية الآنسة « دنانير »

شعر صافٍ صفاء الجدول النمير تنعكس فيه صورة نفس الشاعر، فتحس إذ تقرؤه بروح صاحبه تتغلغل فى كل لفظة من ألفاظه ، وتشعر بدمه يسرى فى كل بيت من أبياته . فإذا أنت تقرأ نفساً حية تتمثل فى قصيدة ، وإذا الشاعر يسمو بروحك معه إلى دنيا شعرية علوية تفيض بالجمال والجلال حتى لتنسى ما يحيط بك ، وقد ملأت قلبك تلك الأخيلة البديعة التى ملأت قلب الشاعر ، وأثر فيك ذلك الإلهام الذى صدر عن حسه المرهف الرقيق . وهذا هو الشعر ، متى كان القلب منبعه فالقلوب مصبه . وذلك هو شعر الأستاذ على محمود طه فى ديوانيه « الملاح التائه » و « ليالى الملاح التائه » وهذا الأخير هو موضوعنا الآن .

يهدى الشاعر شعره إلى الذين أطالوا التأمل فى أسرار الكون ، وأرهقهم التيه فى مجاهل الحياة ، وإلى العائدين بأنس أحلامهم إلى وحشة مضاجعهم بين اللهفة والحنين . وفى هذا الإهداء نستطيع أن نلمس تلك الروح النبيلة الهائمة وتلك النفس الرقيقة الشاعرة التى لا يفتر حنينها ، نفس الأستاذ على محمود طه .

أول ما يطالعك الديوان به هو تلك القصيدة التى شرق ذكرها وغرب . ومن منا لم يسمع بأغنية الجندول التى أوحتها إلى الشاعر زيارته لمدينة ڤينسيا أثناء احتفال الڤينسيين بليالى الكرنفال ؟ ولعل من اللغو أن أذكر هنا هذه القصيدة لشهرتها البعيدة وذيوع صيتها

أثر فى نفس الشاعر طوافه فى أقطار الغرب ، ونحن نسمع صدى هذا التأثير يتردد فى قصائده التى يصف فيها ما شاهده هناك ، أو بالأحرى التى يصف فيها تأثير تلك المشاهد فى نفسه الصافية وحياته الخصب . نقرأ له مثلاً : « بحيرة كومو » ، أو « الجندول » ، أو « خمرة نهر الرين » ؛ فإذا روح الشاعر وحسه وقلبه كل أولئك مذاب فى قصائده يظهرك على مدى تأثير ذلك الطواف فيه . يقول فى قصيدة عنوانها : « خمرة نهر الرين » :

كنز أحلامك يا شا عر فى هذا المكان
سحر أنغامك طوا ف بهاتيك المغانى
فجر أيامك رفا ف على هذى المجانى
أيها الشاعر ، هذا الر ين فاسدح بالأغانى
كل حىّ وجماد ها هنا هاتف يدعو الحبيب المحسنا
يا أخا الروح دعا الشوق بنا اسقنا من خمرة الرين اسقنا

وكأنى بالشاعر يرى كل تلك المفاتن تتصدى له بسحرها وجمالها فلا يسعه إلا أن يتساءل فى هذه الأبيات كأنه لا يصدق عينيه فيما تريان:

عالم الفتنة يا شاعر أم دنيا الخيال
أمروج علقت بي ن سحاب وجبال
ضحكت بين قصور كأساطير الليالى

ثم ينشئ ، وقد رأى أن نهر الرين بجمال جناته وجلال قصوره إنما هو الجنة ؛ فيهتف :

هذه الجنة فانظر أى سحر وجمال

ويحس أن الطبيعة قد أخذت بسحر تلك الليلة ، كما أخذت نفسه ، حتى أنصت الغاب ، وأصغى النهر ؛ ويرى بعين الشاعر التى ترى ما لا يراه الناس أن هذه الليلة الشعرية على ضفاف نهر الرين قد أسكرت الدجى ، وجعلت النجوم بعض الندماء ، فيقول :

ليلة فوق ضفاف الر هر حلم الشعراء
أليالى الشرق يا شا عر أم عرس السماء
الدجى سكران والأ نجم بعض الندماء
أنصت الغاب وأصغى الن هر من سحر وماء
فاسمع الآن لبشير الملتنا حانت الليلة ، والفجر دنا
فاملأ الأقداح من هذا الجنى واسقنا من خمرة الرين اسقنا

ثم يقول لصديقته « فتاة برن » التى التقى بها فى هذا الجو الشعرى ، فنذوق فى قوله حلاوة تلك اللحظات السحرية فى النفس الشاعرة ، ومرارة الأسى على ما فات :

يا ابنة الآر حديث الـ أمس ما أعذب ذكره
كان حلماً أن نرى الر ين وأن نشرب خمره
وشربنا فسكرنا وأفقنا بعد سكره
ووقفنا لوداع وافترقنا بعد نظره
أين أنت الآن أم أين أنا ضربت أيدى الليالى بيننا
غير صوت طاف كالحلم بنا اسقنا من خمرة الرين اسقنا

أى حسرة وأى لهفة تجدها فى هذا التساؤل الذى تكاد كل لفظة من ألفاظه تقطر بدمعة مذابة من قلب الشاعر الفياض بالحنين والشوق:

أين أنت الآن أم أين أنا ؟ ضربت أيدى الليالى بيننا

نقرأ هذه القصيدة أو قصيدة «بحيرة كومو» أو «الجندول» فنتمثل فى أخيلتنا مفاتن الغرب ، وإن لم نرها، من مناظر الطبيعة إلى ليالى الأنس والبهجة ، إلى مرح الشباب والصبى ، ونحس بتأثير تلك المباهج فى تلك الروح الرقيقة وذلك القلب الذى يهيم بحب الجمال أينما كان ، فى الماء والسماء ، فى القصور والرياض ، فى المرأة ، سواء أكانت سامية أو آرية أو غير هذه وتلك . فالشاعر موكل بالجمال يتبعه ، يملأ عينيه ومشاعره وقلبه منه ليتغنى به فى كل قصيدة من قصائده

هذا وتجيل الطرف فى « ليالى الملاح التائه » هنا وهناك فتقرأ له مثلاً « سيرانادمصرية» أو قصيدته التى عنوانها « هى » أو « حلم ليلة » أو « إلى راقصة » وغير هذا مما فى الديوان من الشعر الغزلى ، فترى أن المرأة قد شغلت حيزاً كبيراً من قلب الشاعر وفكره وإحساسه فأوحت إليه بأرق الشعر ، الحزين حيناً ، الباسم حيناً آخر . فالمرأة قد أذاقت الملاح التائه أفانين من حلوها ومرها ، وكل هذا يتجلى لنا فى شعره الغزلى

وهناك قصيدته فى ممرع ربان حاملة الطائرات كوريجس التى أغرقتها غواصة ألمانية فى أوائل الحرب الحالية . يسمع الشاعر بتلك النفس الكبيرة التى آثرت الموت على الحياة . يسمع بما كان من تضحية الكابتن ربان السفينة الغارقة إذ جاد بنفسه . والجود بالنفس أقصى غاية الجود ، فتوحى تلك البطولة النادرة إلى الشاعر بقصيدة من عيون الشعر يبدؤها بقوله مخاطباً الربان :

يا قاهر الموت كم للنفس أسرار ذل الحديد لها واستخذت النار
وأشفق البحر منها وهو طاغية عات على ضربات الصخر جبار

وكأنى بالشاعر هنا يظهر الناس على ضعف الطبيعة مع جبروتها أمام عظمة النفس الإنسانية ، تلك العظمة التى تتجلى فى تضحيتها وعاطفتها ... ثم يقول معرضاً بالغواصة التى أغرقت السفينة :

رماك فى جنبات اليم محترب خافى المقاتل عند الروع فرار
ترصدتك مراميه ولو وقعت عليه عيناك لم تنقذه أقدار
يدب فى مسبح الحيتان منسرباً والغور داج وصدر البحر موّار
كدودة الأرض نور الشمس يقتلها
وكم بهـا قُتلت فى الروض أزهار

وفى هذا البيت الأخير تشبيه بلغ منتهى الجمال والروعة ، لم نسمع بمثله قبل الشاعر على محمود طه

ويذهب الشاعر فى فنون القول كل مذهب ، واصفاً ذلك الموقف النبيل الرائع ، حيث يلقى الربان بقبعته إلى البحر إجلالاً للموت . كل هذا فى أبيات تفيض بالشاعرية التى تسرى فى دم الشاعر إلى أن يقول :

ياعاشق البحر حدث عن مفاتنه كم فى لياليه للعشاق أسمار
ما ليلة الصيف فيه ما رواياتها فالصيف خمر وألحان وأشعار
إذا النسائم من آفاقه انحدرت وضوّأت من كوى الظلماء أنوار
وأقبلت عاريات من غلائلها عرائس من بنات الجن أبكار
شغل الربابنة السارين من قدم تجلى بهن عشيات وأسحار
يترعن كأسك من خمر معتقة البحر كهف لها والدهر خمار
وأنت عنهن مشغول بجارية كأن أجراسها فى الأذن قيثار

انظر إلى هذه التورية المحببة فى ذكره الجارية :

صوت الحبيبة قـــد فاضت خوالجها
ورنحتها من الأشواق أســفار

وبعد هذا يأتى الملاح التائه بأجل وأعجب ما يوحيه الخيال الخصب إلى شاعر . فيخرج عما ألف الشعراء أن يقولوه من استمطار الرحمة على الميت أو ما ماثل ذلك ويطلع علينا بقوله :

نزلنا البحر قبراً حين ضمكما رفت عليه من المرجان أشجار

تالله ، لا يقرأ المرء هذا دون أن يقف عنده متأملاً مأخوذ اللب بسحر هذا الخيال الشعرى . رفت عليه من المرجان أشجار

ونقرأ له قصيدة فى موسيقية عمياء ، وإذا بالشاعر ، دأبه فى نظمه ، قد ذوب نفسه وحسه فى قصيدته الجميلة ، متألماً لتلك الصبية ، أو الزهرة التى زواها الدهر لم تسعد من الإشراق بالسح فيقول لها مثلاً :

إليك الكون فاشتفى جمال الكون باللمس
خذى الأزهار فى كفيـــك فالأشـــواك فى نفسى

ويمضى الشاعر فى القصيدة على أروع ما يوحى به الشعور بالألم ، إلى أن يقول لها :

عرفت الحب يا حـــوا ء أم ما زال مجهولاً
ألمّا تحمـــلى قلباً على الأشواق مجبولاً
صفيه، صفيه فرحاناً ومحـزوناً ومخبـولاً
وكيف أحسّ باللوعـــة عند النظرة الأولى

* * *

ومن آدمك المحبو ب أو ما صورة الصب
لقد ألهمت والإلهـام يا حواء فى القلب